# مخطوط غير منشور للمطران جرمانس فرحات
# «رسالة وجيزة في تعليم الصلاة العقليّة»[1]

حقّقه وقدّم له الأب سليم دكّاش اليسوعيّ[2]

من التآليف المغمورة، ذات الموضوع الروحيّ، وهي غير منشورة هذه الرسالة للمطران جرمانُس فرحات الحلبيّ المعروف بسيرته المسيحيّة الإنجيليّة وإنتاجه ذي الشُّعَب الثلاث: الأدبيّة والليتورجيّة الكنسيّة والروحيّة. وهذه الرسالة، التي وجدناها في المجلّد المخطوط الذي يحمل الرقم ١٥٧ من مكتبة دير البنات للرهبانيّة المارونيّة اللبنانيّة على الصفحات ٧٣ إلى ٨٨، هي أثر ثمين من آثار فرحات التعليميّة الروحيّة ولا أظنُّ أنّ كثيرين استطاعوا أن يكتبوا، من بين أبناء كنائس الشرق، في هذا المجال كما كتب المطران فرحات شكلًا ومضمونًا. ولا شكّ في أنّ هذه الرسالة لها وزنها وقيمتها في إطار التراث الروحيّ الشرقيّ لأكثر من سبب، فضلًا عن الشهرة التي اشتهر بها قلم كاتبها.

نلاحظ أوّلًا أنّ المطران فرحات، وقد تبوّأ منصب الرئيس العامّ

---

(١) سبق أن حقّقنا في العدد السابق من المشرق (كانون الثاني - حزيران ١٩٩٧) نصًّا غير منشور للمطران فرحات رسالة ستّون تأمُّلًا في آلام يسوع وقيامته، وهي رسالة لها ارتباطها بالنصّ الذي ينشره في هذا العدد، إذ إنّها تُعدّ مادّة للصلاة العقليّة. ويجدر لفت النظر إلى أنّ تاريخ سنة وفاة المطران هو ١٧٣٢ ميلاديّة وليس ١٧٢٣ كما ورد في مقدّمة المقال السابق (راجع الصفحة ٥٧) وأنّ النسخ تمّ بعد مئة وسبع سنوات من وفاة المطران فرحات وليس بعد سبع سنوات (راجع ص ٥٨).

(٢) رئيس تحرير المشرق.

لرهبانيّته (١٧١٦-١٧٢٥)، فكتب ونشر، في هذه الفترة، نصوصًا عديدة في مجال التوجيه الروحيّ، منها رسالة الإيضاح لرسوم الكمال[٣] والمحاورات الرهبانيّة[٤] وغيرهما من النصوص.

فالعلاّمة فرحات له معرفة عميقة في مختلف المواضيع والقضايا الروحيّة، إذ بالإضافة إلى اهتمامه بالشأن الروحيّ إبّان رئاسته على رهبانيّته، فهو قد اهتمّ اهتمامًا عميقًا بمعرفة التراث الروحيّ في بُعدَيه الشرقيّ والغربيّ حيث إنّه نشر مختصر كتاب الكمال المسيحيّ للأنبا ألفونسيوس رودريكوس الراهب اليسوعيّ وكذلك كتاب بستان الرهبان، المعروف بين رهبان الشرق وذو المرجعيّة الشرقيّة وقد صدّره المطران فرحات بمقدّمة طويلة.

ونلاحظ ثانيًا عندما نعود إلى نصّ الرسالة الوجيزة في تعليم الصلاة العقليّة أنّ المطران فرحات، «الدقيق الفهم»[٥]، العارف ببواطن الأمور، ينهل من معين الروحانيّين الشرقيّين وكذلك، من مصادر الغربيّين، ما يراه مناسبًا للعابد في زمانه، وهو يعطي للتقليد مكانه ولبعض الاتّجاهات الحديثة، التي كانت بارزة في أيّامه، البُعْد الواقعيّ اللازم.

فالمطران فرحات يركّز اهتمامه على موضوع «الصلاة العقليّة» فيكرّس لها رسالة أو بحثًا مفردًا خاصًّا، وهذا لافت للنظر، حيث إنّ التقليد الروحيّ، شرقًا وغربًا، لم يكن يُفَرِّق بين الصلاة والتأمّل والمشاهدة والقراءة الروحيّة تفريقًا دقيقًا، بل إنّ كلّ هذه الأفعال كان يُنظر إليها عبر وظيفتها كرياضات تهدف إلى اتّحاد العابد بالله. فالصلاة العقليّة ليست سوى الصلاة الباطنيّة الصامتة بالمقارنة مع الصلاة الشفهيّة

---

(٣) نشرها الخوري ميشال بريدي في العام ١٩٥٣، مطابع خيّاطه، طرابلس.
(٤) نشرها الأب أنطونيوس شبلي في حريصا في السنة ١٩٢٢.
(٥) هذا الوصف جاء في مذكّرات المطران قرألي في كتاب حياته، بقلم المرحوم الخورأسقف بولس قرألي، الجزء الأوّل، ص ٧٨، مطبعة العلم، بيت شباب، السنة ١٩٢٣.

اللفظيّة[٦]. والواضح أيضًا أنّ النظام الرهبانيّ في التدرُّب على الصلاة كان يركّز على الحياة الجماعيّة والليتورجيّة حيث إنّ الحياة الديريّة النسكيّة كانت وحدة متماسكة، كما كانت حالة المجتمع كذلك.

إلاّ أنّ التحوّلات التي طرأت على الحياة الديريّة والكنسيّة، مع بروز النهضة وبداية الإصلاح البروتستنتيّ، وضرورة تمتين إرادة العابد والراهب وتنويرها وتثقيفها بوجه خاصّ. فالإرادة تتسلّح وتتمتّن بواسطة السلاح الأقصى أي التأمُّل، أو الصلاة العقليّة. فهذا التأمُّل لم يعُد التأمُّل العاطفيّ، وهذا ما يشير إليه فرحات في بداية القسم الثالث من رسالته، بل إنّه التأمُّل العقلانيّ، الهادف والقاصد، النظاميّ والمريد، كما صاغته وأوّلًا «التقوى الحديثة» (Devotio moderna) وهو تأمُّل يعطي الإرادة الأسباب التي تجعلها متينة[٧].

ومع نشأة الرهبانيّات الحديثة، كالرهبانيّة اليسوعيّة وغيرها، كان على الراهب أن يتكوّن ويتدرَّب على الجهاد الفرديّ في مواجهة النزعة الطبيعيّة التي كانت تتمدّد في المجتمعات الأوروبيّة وغيرها، في حين أنّ التدرُّب على الصلاة العقليّة والتروُّض على تقنيّاتها لم يعد حصرًا على الراهب الناسك بل إنّ العلمانيّ أخذ يستطيع تملّكها. وفي هذا الإطار، لم تعد الحياة الروحيّة مرتبطة فقط بالمشاهدة «التاوريا» فقط بل أصبحت وظيفتها «عمليّة». إنّها تهدف، عبر الصلاة العقليّة الفرديّة، إلى «خدمة الله» لا إلى «تذوُّق الله» فقط، بالرغم من أنّ الوجه التقليديّ للصلاة لم تختفِ تمامًا حتّى في الإطار الغربيّ مع القدّيسة تريزيا الأفيليّة وفرنسيس السالسيّ وغيرهما. إلاّ أنّ الفرديّة النفسيّة أصبحت من الثوابت في مجال الحياة الروحيّة. أمّا المطران فرحات فإنّه يشدّد من الناحية على وظيفة الصلاة العقليّة في تنظيف النفس وتطهيرها وعلى عبادة الله عن طريقها (راجع تنبيه

(٦) راجع رسائل يوحنّا الدلياتيّ، نقلها عن السريانيّة الأب سليم دكّاش اليسوعيّ، منشورات دار المشرق، ١٩٨٥، ص ٧٤.

(٧) راجع مقالة «Prière» في موسوعة *CATHOLICISME*، الجزء الحادي عشر، منشورات Letouzey et Ané، ص ٩٤٣.

الجزء الأوّل، الاستعداد وكذلك تعريف الصلاة العقليّة). إلاّ أنّه يربط بين الصلاة والعمل الدنيويّ، إذ إنّ العمل الدنيويّ هو المجال الذي فيه تُحفَظ المقاصد «التي اكتسبتها في الصلاة العقليّة» (إلتنبيه الثاني، الجزء الرابع، القصد).

وإذا أردنا أن نتوقّف بعض الشيء على عناصر التأمّل الأساسيّة كما حدّدها جرمانس فرحات، رأينا أنّه يحصرها بثلاثة هي: «الاعتبار والعاطفة والقصد، والبقيّة بمنزلة المقدّمة والخاتمة» (راجع بداية القسم الخامس من الرسالة)، وهو يرى في القصد «غاية الصلاة العقليّة» (راجع الجزء الرابع: القصد). وهذا التشديد على القصد، موقفًا نهائيًّا للمتأمّل في إطار الصلاة العقليّة، هو معروف وشهير في تاريخ الحياة الروحيّة وآدابها منذ القرن الرابع عشر في الغرب، عندما أخذت حركة «التقوى الحديثة» تولي القصدَ أو المقاصد التي يتوصّل إليها المتأمّل في تأمّله الفرديّ (intention) المكان أو الإطار الضابط لمجمل عمليّة التأمّل. ورتبة القصد تأتي بعد العاطفة والاعتبار.

ويحدّد فرحات موقع القصد في الصلاة العقليّة على الوجه التالي:

– إنّ التقليد الرهبانيّ لم يكن بعيدًا عن التركيز على إرادة المتأمّل في أخذ المقاصد التي تلائم حياته الروحيّة. فعندما يقول القدّيس بوناونتورا إنّ فائدة الصلاة العقليّة هي أن يهذّب الإنسان ذاته، فهذا يعني أنّ المصلّي يلزمه أن يقصد في صلاته فعلَ أمرٍ محدّد (راجع القسم الأوّل: في تعريف الصلاة العقليّة...). وتأويل قول القدّيس بوناونتورا، كما أجراه فرحات، لافت للنظر حيث إنّه لا تعارض بين القديم والجديد، بين التقليد والحداثة.

– وإذا كان القصد غاية الصلاة العقليّة لما فيه من فائدة، فإنّ الاعتبار هو الخطوة الأولى الأساسيّة التي يعتمدها المتأمّل، والاعتبار هو تفكُّر في حقيقة الموضوع ومخاطبة النفس ذاتَها لرؤية الحقائق التي تمّ فهمها. ودور الاعتبار أيضًا هو في إقناع النَفس بفائدة الموقف الصحيح،

عن طريق الموازنة بين الربح والخسران، حيث إنّ العقل يضطلع بدور مهمّ في هذا المجال.

- ويتحدَّث فرحات عن العواطف فيقول: «إنّ الاعتبار يؤثر حركات حميدة تلائم موضوع التأمّل، وهذه الحركات تُسمّى العواطف (...) وهي بمنزلة الأسباب لأنَّ النفس تنعطف بها» (راجع الجزء الثالث: العاطفة). والواقع أنّ الاعتبار يقود إلى هذه العواطف، فتأتي الإرادة وكذلك العقل لتثبيتها. إلاّ أنّ فرحات، المتوحِّد الروحانيّ، ذا الخبرة، لا يستثني أن تأتي العواطف عن طريق القلب قبل الاعتبار، أي أن تأتي عن طريق التدخُّل المباشر لقوّة النعمة في وجود المتأمّل.

- وهكذا يأتي القصد موقفًا يتّخذه المتأمِّل، مستفيدًا من الاعتبار والعاطفة، للبقاء في حياة الروح والفضيلة. إنّه العزم الفرديّ على ترتيب النفس بالتفاعل مع الفضيلة والمحبّة. إنّه فعل اكتساب معنى الموضوع في إطار الحياة العمليّة.

## تصميم مختصر لتطوّر حركة الصلاة العقليّة عند جرمانُس فرحات

إنّ حديث المطران فرحات عن الصلاة العقليّة يفترض ثلاثة أمور مبدئيّة:

**أوّلًا**: إنّ غاية الحياة المسيحيّة هي الكمال في الاتّحاد.

**ثانيًا**: إنّ الكمال يفترض طُرُقًا محدّدة (التنظيف، التنوير والاتّحاد...).

**ثالثًا**: وسائط الكمال وهي على قسمين: خارجيّة (كالإرشاد، والتوبيخ، وقبول الأسرار والمحافظة على الآدب) وباطنيّة (كفحص الضمير والرياضة والصلاة العقليّة...).

إذن، الصلاة العقليّة هي جزء من الوسائط الباطنيّة التي تساعد العابد في أن يحقّق غاية سعيه إلى الكمال.

الصلاة العقليّة

ماهيّة وفائدة واستعمال - عمل فرديّ

التأمُّل هو فعل تحقيق الصلاة العقليّة

موضوع التأمّل نوعان: معنويّ وشخصيّ مكانيّ

المعنويّ هو فعل الفكر والفهم والإرادة

الشخصيّ المكانيّ هو فعل المخيِّلة والفهم والإرادة

الصلاة العقليّة ليست مرتبطة بالعاطفة فقط بل بالقصد خاصّة.

أجزاء الصلاة العقليّة الأساسيّة: الاعتبار والعاطفة والقصد (بالمختصر) وسبعة (بالتوسّع): الاستعداد، الاعتبار، العاطفة، القصد، الشكر، والتقدمة، والطلبة.

وهكذا يبدو العلاّمة فرحات عارفًا بموضوعه وبما يريده عبر صياغته للرسالة في تعليم الصلاة العقليّة. فالهدف هو أن يتسلّح الراهب والعابد بسلاح الله، إلاّ أنّه لن يتمكّن من ذلك إن لم يتحرّر من الأهواء، والتأمّل العقليّ هو الواسطة الذي سيبلغ بها إلى ذلك. فارتفاع القلب والعقل إلى الله هو أمر أساسيّ في الحياة الروحيّة، وهذا الارتفاع لن يتحقّق فقط عبر الحياة الجماعيّة الديريّة وأشكالها فقط، بل عبر الامتلاك الفرديّ لتجلّيات الحضور الإلهيّ.

فالتأمّل، بحسب فرحات، أكان معنويًّا أم مكانيًّا، يقود إلى الامتلاك: إمتلاك المغزى والمعنى أو امتلاك الصورة وفعل الله، وذلك بصورة فرديّة نفسيّة عمليّة، دون أن يقود ذلك إلى تصوُّر التأمُّل وكأنّه جهد شخصيّ فقط يقوم على تواضع العقل قبل أيّ أمر آخر.

ونلاحظ أخيرًا أهمّيّة المطران فرحات في صياغة المفردات والتعابير العربيّة الخاصّة بالحياة الروحيّة. بالإضافة إلى تلك المقاطع الفريدة ذات الأسلوب المتناغم: «فاضبطنَّ عقلك واحبسه في مكان السرّ الذي قصدت التأمُّل فيه، ومارس في هذا النوع فعل المخيّلة والفهم والإرادة...» وأيضًا: «وسُق الإرادة نحو امتلاك ذلك الميلاد لأن يكون في مغارة نفسك»... وتعدّد المفردات ذات الطابع النظاميّ مثل الموضوع المعنويّ أو الشخصيّ المكانيّ (للدلالة على التأمُّل بوجهيه المجرّد أو المادّيّ) والامتلاك (للدلالة على الإدراك) وسَوْق الإرادة (أي توجيهها) واليبوسة (للدلالة على الجفاف الروحيّ) والمسكنة (للدلالة على الاتّضاع)...

لا شكّ أنّ نصّ المطران فرحات هو نصّ توليفيّ بين القديم والحديث والتقليد والحداثة في مجال الخطاب الروحيّ، وذلك يدلُّ على قدرة المؤلّف على قراءة علامات الأزمنة. فأمام أجواء العالم الحديث الذي أخذ يدقّ أبواب عالم الشرق وعالم الكنيسة، لا يقف صاحب الرسالة موقف المتفرّج، بل إنّه، بما له من علم وخبرة في الحياة الروحيّة، يدعو إلى تجديد في الحياة الروحيّة. أمام هذه التحوّلات وضع فرحات

هذه الرسالة في الصلاة العقليّة لتكون أداة ثبات الراهب والعابد في إيمانه وخلمته.

## [نصّ الرسالة][8]

فهذه رسالة وجيزة في تعليم الصلاة العقليّة جمعها الحقير في الكهنة جبرايل فرحات الراهب اللبنانيّ واغتناها من رياض كتب رياضات الآباء القدّيسين الأفاضل، واستقاها من حِياض علماء الكنيسة الجامعة الرسوليّة الأماثل لفائدة المبتدئين بهذه الصلاة، الضروريّة للعابدين ليتوصّلوا إلى معرفتها من طريقة سهلة تُقَرِّب إليهم ما كان صعبًا عليهم، وهو يسأل الواقف عليها والمتأمّل فيها ألاّ ينساه من دعائه.

### القسم الأوّل: في تعريف الصلاة العقليّة وفائدتها واستعمالها

أقول إنّ الصلاة العقليّة هي ارتفاع القلب والعقل إلى الله، وفائدتها هو ما قاله القدّيس بوناونتورا[9] أن يهذّبَ الإنسان ذاته باستئصال الرذيلة واستقناء الفضيلة، أي إنّ المصلّي يلزمه أوّلًا أن يقصد في صلاته قلع تلك الرذيلة الطالب التخلّص منها، ولا يتحرّك إلى غيرها حتّى يقلعها، ولو ثبت في ذلك أيّامًا وشهورًا وهكذا يصنع في استقناء الفضيلة. فيلزم المصلّي من هنا أن يتسلّح بهذا السلاح المثلّث وهو أوّلًا التواضع، ثانيًا إماتة الذات، ثالثًا تهذيب الأخلاق، فإذا توشّح المصلّي هكذا فليقرأ قبل شروعه بالتأمّل «أبانا» و«السلام» و«قانون الإيمان» مرّة واحدة بتفهّم وذوق عقليّ ليتحرّك القلب نحو إتقان موضوع الصلاة العقليّة. ومدّة هذه الصلاة ساعة أو نصف ساعة مرّتين في النهار بكرةً وعشيّة أو مرّة واحدة.

---

(٨) المعقوفان وما بينهما هي مَن وضع ناشر المخطوط.

(٩) بوناتتورا هو راهب فرنسيسكانيّ إيطاليّ (١٢٢١-١٢٧٤م). من معلّمي الكنيسة الغربيّة ولتآليفه أثرٌ بعيد في التصوّف المسيحيّ. راجع P. Bonaventura, *De externa et interna hominis compositione*, L 3, 67, 4.

## القسم الثاني: في موضوع التأمُّل

موضوع التأمُّل نوعان: معنويّ وشخصيّ مكانيّ.

المعنويّ هو أن تنتخب لك آيةً من الكتاب المقدَّس وتجعلها موضوع تأمُّلك أو تقرأ في كتاب مصنّف في التأمُّلات، ومارس في هذا النوع فعل الفكر والفهم والإرادة، أي إنّك تنتقل بفكرك في ذلك الموضوع حسب اتّساع عقلك وجولانه فيه. وهذا التنقُّل يُسمّى الاعتبار، وتأتي حقيقة بيانه في مكانه. ثمّ إلحق الفهم بالتفكُّر وهذا هو عينُ التأمُّل العقليّ ثمَّ سُق الإرادة الصالحة نحو امتلاك ما فهمته من ذلك التأمُّل، وهذا هو المُراد من الصلاة العقليّة فينتج لك منه اللطافة والقصد كما نبيّنه في موضعه.

والشخصيّ المكانيّ هو أن تبني في مخيّلتك مكانًا تتأمّل فيه، كتأمُّلك في أماكن أسرار التجسُّد أو في النعيم والجحيم والمطهر ما يشاكل ذلك. فاضبُطنَّ عقلك واحبسه في مكان السرّ الذي قصدت التأمُّل فيه، ومارس في هذا النوع فعل المخيّلة والفهم والإرادة، واصنع هنا ما تصنعه في التأمُّل المعنويّ. مثلًا إذا أردت أن تتأمّل في المسيح مولودًا فتخيَّل في عقلك كأنّك حاضرًا في بيت لحم، وأنت تنظر جميع الأمور التي تمّت في الميلاد الإلهيّ بعينيّ المخيّلة وافهم أنّ هذه كلّها صار[ت] من أجلك. وسُق الإرادة نحو امتلاك ذلك الميلاد لأن يكون في مغارة نفسك وقلبك وقِس على هذا أمثاله.

تنبيه

إذا استحسن عقلك فكرًا ما بين الأفكار المنسوبة إلى موضوع تأمُّلك سواء [أ]كان معنويًّا أم شخصيًّا ووجدت فيه نورًا ونفعًا، فَقِفْ هناك متعلّقًا به ولا تَدَعْ عقلك يتحوّل عنه إلى غير، حتّى تملَّ منه وبالعكس. أي إذا رأيت ذاتك لم تنتفع في قسم من أقسام ذلك التأمُّل بعد أن عملت جهدك في اعتباره، فاتركه وخُض في قسمٍ آخر منه.

## القسم الثالث: في يبوسة القلب وتشتيت الفكر وقت التأمُّل

إنّ الصلاة العقليّة ليست بمتوقّفة على خشوع ودموع، ولا على لذّة وعذوبة، فأن يحصل ذلك فهو حسن، بل هي متوقّفة على عزم ثابت نحو المقاصد التي تبتغيها، وهذا هو الضروريّ في الصلاة العقليّة، فإذا عرض لك يبوسة قلب وجمود عقل وقت التأمُّل، ولم تشعر في قلبك بتسلية سماويّة، لا تضطرب ولا تنزعج، بل قِفْ بين يديّ الله متواضعًا معترفًا أمامه بذلّتك وحقارتك، وتضرّع إليه مع المرتّل قائلًا: «اللّهمّ اصغ إليّ، معونتي يا ربّ، اسرع إلى إغاثتي»، وقل هذا الإستيخُن الإلهيّ[١٠] في كلّ تجربة تعرضُ لك فإنّه مؤثّر في دفعها. ثمّ اتلِ في ذلك الوقت بعض أناشيد[١١] لفظيّة، أو خُذ كتابًا روحيًّا واقرأ فيه بإصغاء كلّيّ ليتنبّه عقلك فإن ثبُتت اليبوسة، فحرّك قلبك بحركات جسديّة متواضعة مثل قرع الصدر والتنهُّد وصلب الأيدي أو تكتيفها واحن الرأس والمطانيّات وقبّل الصليب بالتورُّع وما يشاكل ذلك[١٢]. فإن ثبتت اليبوسة أيضًا ولم تشعر أيضًا بالتعزية فلا تضطرب. بل اثبت أمام الله في حالة التورُّع والتعبُّد بهدوء وسكون وصبر حتّى تتمّ مدّة الصلاة فإنّ الله يرضى بصبرك ويعتبر ثباتك بمنزلة صلاتك وقل هكذا يريد الله وأنا مطابق إرادته. وأمّا تشتيت الفكر وقت التأمُّل يعرض من ثلاثة أسباب كما قال الأنبا كسيانُس[١٣]، الأوّل تبديد عقلنا وأحواسنا وقلبنا بالباطل في نهارنا، واللازم أن نحترس على ضبط حواسنا. الثاني من حسد الشيطان ليعيقنا عن الخير، وعلاجه الالتجاء إلى الله. الثالث من الضعف الطبيعيّ الذي فينا من قبل الخطيئة الأصليّة، وعلاجه الاتّضاع وإظهار مسكنتنا أمام الله.

---

(١٠) إستيخُن: آية.

(١١) أفاشين جمع إفشين: صلاة.

(١٢) هذه الأفعال تُدرج كلُّها في باب الوسائط الخارجيّة.

(١٣) يوحنّا كسيانُس (٣٦٠ - ٤٣٥م). زار متوحّدي الديار المصريّة. له محاضرات ومؤسّسات ديريّة وتعليم روحيّ. لم يَقُل إنّ تشتّت العقل يحدث لثلاثة أسباب بل لأسباب بينها الكسل. راجع Cassianus, *Collationes*, 4, 2/3. P.L. 49/285 sq.

## القسم الرابع: في التهيُّؤ إلى الصلاة العقليّة

إذا تقدّمت إلى الصلاة العقليّة يلزمك **أوّلًا** أن تتقدّم فتُهيِّئَ لك للصلاة إمّا شخصيًّا مكانيًّا أو آية من الكتاب المقدّس أو أنّك تقرأ قبل التهيُّؤ بمدّة ملائمة في كتاب مصنّف في التأمُّلات كما تقدّمنا فقُلنا. وكُن في القراءة متأنّيًا مستفهمًا ليتأسّس ما تقرأه في ذهنك. **ثانيًا** قف أمام الله جاثيًا أو منتصبًا وأنت مكتّف اليدين على صدرك في شكل صليب بأدبٍ وخوفٍ وإطراق، نادمًا ندامة كاملة واغفر لكلِّ مَن أساء إليك. وما أحسن إذا كان في يدك صليب معتدل، وخاطِب الله بهذه الصلاة الوجيزة قائلًا: اللّهمَّ قدِّرني بنعمتك أن أصرف هذه الساعة في رضاك وخدمتك مع خلاص نفسي ونموّها في عبادتك. **رابعًا**[14] احسب أنّه ما عاد في الوجود غير الله وأنت، فهو يخاطبك وأنت تخاطبه.

## القسم الخامس: في أجزاء الصلاة العقليّة

إنّ الأجزاء التي تتألّف منها الصلاة العقليّة سبعة:

**أولًا** الاستعداد، **ثانيًا** الاعتبار، **ثالثًا** العاطفة، **رابعًا** القصد، **خامسًا** الشكر، **سادسًا** التقدمة، **سابعًا** الطلبة. هذا بالوجه الأعمّ وأمّا بالوجه الأخصّ فهي ثلاثة الاعتبار والعاطفة والقصد، والبقيّة بمنزلة المقدّمة والخاتمة.

### الجزء الأوّل: [الاستعداد]

الاستعداد نوعان: قريب وبعيد. فالاستعداد البعيد هو أن تكون سائرًا في نهارك بسيرة حسنة ذات تقوى وعبادة متجنّبًا أسباب الخطايا حافظًا أحواسك باطنًا وظاهرًا، وغير مفتّش على أمور العالم، ولا منهمكًا بالكلام الباطل والمزاح لأنّ هذه كلّها وأمثالها تولّد فيك ضَجَرًا وطياشة في الصلاة العقليّة. وأمّا الاستعداد القريب فهو الحضور الإلهيّ وأنواعه

---

(١٤) هكذا في الأصل. سقطت ثالثًا.

ثلاثة: الأوّل أن تتصوّر الحضرة الإلهيّة، أي إنّ الله حاضر في كلّ مكان، وقل مع الآباء حقًّا إنّ الله في هذا المكان وأنا لم أعلم. الثاني إنّ الله موجود أيضًا فيك وسط قلبك وعقلك وأنّك فيه حيًّا وهو فيك. فكأنّك إسفنجة في ماء والماء داخلها وخارجها وأنّ أحواسك باطنًا وظاهرًا متحرِّقة به وفيه. فكأنّه نفس نفسك، وروح روحك وهذا يسمّى حضور الله غير متجسّد. الثالث أن تتصوّر السيّد المسيح متجسّدًا كأنّه أمامك حاضرًا كما تتصوّر حضور محبّتك لا سيّما إذا كنت أمام القربان المقدّس، فإنّه حاضر لديك حقيقة تحت عوارض الخبز والخمر أو أنّك تتصوّره ناظرًا إليك من علوّ سمائه وهذا يسمّى حضور الله متجسّدًا فاستعمل من هذه الثلاث نوعًا واحدًا وهذا يكفيك.

تنبيه

إذا كنت جاثيًا أمام الله بوقار واحتشام كلّيّ ومستحضرًا بإزائك تلك الجلالة الإلهيّة كما قلنا هنا فاعترف بأنّك لست أهلًا لأن تكون ماثلًا أمام الله تعالى. واطلب منه معونة لتعبده كما يجب في صلاتك وقل مع المرتِّل: «لا تطرحني من أمام وجهك وروحك القدّوس لا تنزعه منّي»[١٥]. ثمّ استشفع مريم والدة الإله وخطيبها مار يوسف وملاكك الحارس والقدّيس سَمِيك.

الجزء الثاني: [الاعتبار]

الاعتبار هو ترديد الموضوع في العقل كانتقالا ت فكريّة ويلزمك في استعمال الاعتبار ثلاثة أمور وهي أقسام التأمُّل بوجه الاختصار. الأوّل التفكُّر في حقيقة الموضوع سواء أكان معنويًّا أم شخصيًّا أي أنّك تردّد فكرك في فوائده ومضرّاته وحيلاته وتكوينه وسببه وغايته ثمّ تفهم معنى ما اعتبرته جيِّدًا. الثاني مخاطبة النفس كأنّك تريها حقائق ما افتكرت به وفهمته، ثمّ سُق الإرادة إلى امتلاكها والتجنُّب منها موردًا أسبابًا لذلك

---

(١٥) مزمور ٥٠، ١٣.

وهذا هو العاطفة. واعزم على السلوك باكتساب معنى الموضوع وهذا هو القصد والنتيجة. وهذا هو نفس ترتيب الوعظ وهو الطريقة الأقرب إليه. مثلًا إذا جعلت موضوع تأمُّلك التواضع، إفتكر في شرف هذه الفضيلة وضرورتها لنا، وإنّ ابن الله جاءنا بها وعلّمنا إيّاها بعمله وعلمه. وكن مستفهمًا كلّما اعتبرته. وهذا هو القسم الأوّل. ثمّ خاطب نفسك قائلًا لها: تأمّلي يا نفسي في عِظَم هذه الفضيلة التي لا خلاص لك بدونها. واسألها هل سَلَكْتِ بها أم ذاقتها أم اعتبرتها واستفهم ذلك منها وهذا هو القسم الثاني. ثمّ وبّخ نفسك لأنّها أضاعت مثل هذه الدرّة الثمينة واعتاضت عنها بزبل الكبرياء، وفهّمها مقدار الربح الذي أضاعته وخَسِرَته. والخسران الذي ربحته وهذا هو القسم الثالث. وتوسّع بفكرك في كلّ قسم من هذه الأقسام الثلاثة، ثمّ سُقْ الإرادة على امتلاك فضيلة التواضع موردًا من عندك أسبابًا تقنعك في ذلك وهذه هي العاطفة. أعزم على أن تكون متواضعًا من الآن فصاعدًا وهذا هو القصد وسُقْ على هذا الترتيب استعمال كلّ فضيلة ورذيلة. ونوع هذا الاعتبار يخصّ الأقوياء في التأمُّل الذين [لا] يخفاهم تنقُّل الفكر في العقل وأمّا إذا كنت مبتدئًا في صناعة التأمُّل أو كان فِكرُك قاصرًا عن الاعتبار، فلك آلات إذا استعملتها تسهل عليك معاطاته وأنا أذكرها لك بعد جزء القصد.

الجزء الثالث: [العاطفة]

إنّ الاعتبار يؤثّر في النفس حركات حميدة تلاءم موضوع التأمُّل، وهذه الحركات تُسمّى العواطف، جمع عاطفة، وهي بمنزلة الأسباب لأنّ النفس تنعطف بها نحو عشرة أمور: بوجه الاختصار **أوّلًا** محبّة الله والقريب، **ثانيًا** الرغبة في السعادة الأبديّة، **ثالثًا** الرهبة من الدينونة وجهنّم، **رابعًا** بغض الخطيئة، **خامسًا** مذمّة العالم ومجده، **سادسًا** التعجُّب من حسنات الله معنا، **سابعًا** الخَجل والحياء من خطايانا السالفة، **ثامنًا** الخوف من الموت والرذل، **تاسعًا** الاتكاء على رحمة الله تعالى، **عاشرًا** الاقتداء بسيرة يسوع والتشبُّه بقدّيسيه. فهذه إذًا استنتجها العقل عند تمام الاعتبار، تؤثّر في النفس إحدى هذه الحركات – حسب اقتداء

الموضوع - فيثبت العقل حينئذٍ مستمرًّا في هذه العواطف حسب استطاعته على حبِّ الفضيلة وبغض الرذيلة. ومن شأن هذه العواطف أن تكون بعد الاعتبار حسب ترتيب أجزاء هذه الصلاة. لكن إن رأيت قلبك قد تحرّك قبل جزء الاعتبار نحو هذه العواطف الروحيّة، فاطلق له العنان وَدَعْ جزء العواطف الشهيّ غاية جزء الاعتبار. النتيجة هي أنّك تتشبّث بالعواطف، متى تحرَّك قلبُك بها سواء أكان ذلك بعد الاعتبار أو قبله.

**الجزء الرابع: [القصد]**

القصد هو ممارسة السيرة وتغيير الأخلاق التي فهمتها من الاعتبار وتمكّنت فيها الإرادة، وتحرّك القلب بها بالعواطف، وهذا ضروريّ جدًّا وهو غاية الصلاة العقليّة. مثلًا إذا رأيت قلبك تحرّك بعاطفة الاقتداء بالمسيح الذي قال: «يا أبتاه اغفر لهم»[١٦] وأردت أن تغفر لأعدائك، فإنّ هذا لا يخفاك ما لم تقصد أنّك ما عُدت تغتاظ من الكلام المنكيّ الذي تسمعه من الناس لأنّ هذه هي الواسطة التي تصلح بها سيرتك وتثقّف أخلاقك وهذا هو القصد. فالعاطفة تفيدنا حبّ الفضيلة وبغض الرذيلة المسبّب من أحد تأثيرات الاعتبار. وأمّا [القصد] فإنّه يفيدنا ممارسة الفضيلة وترك الرذيلة. إفهم الفرق فلهذا تكون رتبة القصد بعد رتبة العاطفة.

تنبيه

إنّ الفائدة الناتجة من التأمُّل هي أن تثبت على مقاصدك الصالحة التي اعتمدتها في صلاتك بعد خروجك من التأمُّل وإلاّ فصلاتك باطلة. مثلًا إذا أحببت العفّة حبًّا بالله أو بالقريب أو خوفًا من الدينونة وما يشاكل ذلك من العواطف المقدّم ذكرها، فهذه هي العاطفة. وإذا قصدت أنّك لا تعود تدنّسها فهذا هو القصد. فإذا فرغت من صلاتك فاثبت على هذا القصد حتّى تتمّه لأنّه هو الغاية المأثورة من الصلاة العقليّة كما قلنا غير مرّة.

---

(١٦) من كلمات السيّد يسوع المسيح على الصليب. راجع لو ٢٣، ٣٤.

## تنبيه

متى فرغت [من] صلاتك العقليّة وأخذت في ممارسة أشغالك العمليّة بمقتضى وظيفتك، يلزمك أن تصون قلبك ولسانك من الباطل وتحفظ في نفسك المقاصد التي اكتسبتها في الصلاة العقليّة. قال القدّيس يوحنّا السلميّ[17]: لا تبدّد في اللجّة تبديدًا مذمومًا ما جمعته في الميناء جمعًا محمودًا، أي لا تضيّع في لجّة أشغالك ذلك الخير الذي ربحته في صلاتك. حقًّا إنّ الصلاة والعمل الدنيويّ مطلوبان منّا ومرتّبان علينا من الله لكن إذا تركنا الصلاة يلزمنا أن نمارس عمل اليد بروح التواضع والعبادة فيقتبلان حينئذ قبلة السلامة.

## ذكر آلات الاعتبار للمبتدئين

ها أنا أضع لك هنا ثلاثة أنواع من آلات الاعتبار لتسهّل عليك طريقة التأمّل. وتكون لك بمنزلة قاعدة تبني عليها اعتبار كلّ موضوع تتأمّل فيه.

## الآلة الأولى

ظروف الحدوث ستّة: أوّلًا مَن، ثانيًا متى، ثالثًا أين، رابعًا بماذا خامسًا لماذا، سادسًا كيف. مثال ذلك، إذا أردت أن تتأمّل في آلام يسوع اعتبر هذه الظروف الستّة قائلًا في فكرك: مَن الذي تألّم؟ هو يسوع ابن الله خالق الخلايق كلّها. متى تألّم؟ حين أراد خلاص الإنسان. أين تألّم؟ في العالم الباطل. بماذا تألّم؟ بناسوته البريء من كلّ نقص. لماذا تألّم؟ ليَفي عنّا خطايا الإنسان ويخلّصه. كيف تألّم؟ بالعذاب المرّ والصلب الأمرّ وتوسّع بفكرك في كلّ ظرف من هذه الظروف الستّة ويجوز لك أن تستعمل منها بعضًا وتترك بعضًا وأن تقدّم وتؤخّر فيها حسب اقتداء الموضوع الذي اتّخذته. ثمّ إلحق الفهم بالفكر والاعتبار في كلّ ظرف اعتبرته. واختم

---

(17) متوحّد في جبل سيناء. توفّي حوالى ٦٤٩م. لُقّبَ بالسلّميّ نسبةً إلى عنوان كتابه سُلّم الفردوس، وقد ازدهر بين الرهبان.

اعتبار الظروف كلّها بحركة الإرادة نحوها. العاطفة: محبّة الله الواجبة علينا، القصد: أُقصد أن تحبَّ الله فوق كلّ شيء.

الآلة الثانية

فحص الضمير الخصوصيّ وهو خمسة: أوّلًا فحص الضمير بالكلام، ثانيًا فحص الضمير السماع، ثالثًا فحص الأفكار، رابعًا فحص الاحتمال، خامسًا فحص الأعمال. مثال ذلك إذا أردت اعتبار هذا الفحص، قُلْ في فكرك في فحص الكلام أنّ يسوع كان يتألّم ولا يتكلّم، وأنا أتذمّر في وقت التجارب. فحص السماع، إنّ يسوع كان يسمع ألفاظ الشتائم والهزء وأنا أريد سماع المِدْحة والاعتبار وسماع المزاح والكلام الباطل. فحص الأفكار: إنّ يسوع كان مفتكرًا في آلامه بخلاصي، وأنا لا أزال مفتكرًا بالخطايا والأباطيل. فحص الأعمال: إنّ يسوع كان يحتمل مرارة الآلام من أجلي وأنا لا أحتمل كلمة واحدة مُرّة من أجله. فحص الأعمال: إنّ يسوع كان يجاهد بالعمل من أجل خلاصي وأنا كسلان عن خلاص نفسي. وتوسَّل بفكرك في اعتبار كلّ فحص من هذه الخمسة ويجوز لك استعمال بعضها والتقديم والتأخير فيها. ثمّ الحق الفهم كاعتبارك كلّ فحص منها واختمه بحركة الإرادة. العاطفة: الاقتداء بسيرة المسيح. القصد: أقصد أن تقتدي بسيرته وقد أثبت اعتبار هذا الفحص الخصوصيّ الأنبا رودريكوس اليسوعيّ في الجزء الثاني من كتابه الكمال المسيحيّ(١٨).

الآلة الثالثة

الحواس هي خمس: أوّلًا النظر، ثانيًا السمع، ثالثًا الشمّ، رابعًا اللمس، خامسًا الذوق. مثال ذلك في فضيلة العفّة: النظر يحرّكه الله لأن أنظر بعين العفّة، وأنا أحرّكه إلى الجمال الشهوانيّ. السمع يحرّكه الله لأن أصغي إلى كلام الله في العفّة والقداسة، وأنا أحرّكه إلى الكلام الرديء

(١٨) راجع الكتاب الأوّل من كتاب الكمال المسيحيّ، ترجمة بطرس فرماج اليسوعيّ، ص ٣٤٩، مطبعة الآباء اليسوعيّين في بيروت، ١٨٦٨.

النجس. الشمّ يحرّكه الله لأن أستنشق رائحة العفّة السماويّة، وأنا أحرّكه إلى الروائح المهيِّجة إلى الزنا. الذوق يحرّكه الله إلى أن أذوق طعم العفّة في قلبي وعقلي وأنا أحرّكه إلى الذوق النجس والتقبيل الرديء. اللمس يحرّكه الله لأن ألمس بأدب واحتراس عفيف وأنا أحرّكه إلى اللمس النجس الفَسِق وقِسْ على هذا اعتبار جميع الفضائل والرذائل وتوسّع بفكرك في اعتبار كلّ حاسّة من هذه الأحواس الخمس ثمّ الحق الفهم باعتبارك كلّ حاسّة منها واختمه بحركة الإرادة. العاطفة: ضبط العفّة خوفًا من دينونة الله. القصد، اقصد أن تعيش عفيفًا بحفظك حواسك وهذه الآلات تناسب المبتدئين في تعليم الصلاة العقليّة لأنّها تسهّل عليهم طريقة الاعتبار المستصعبة. وأمّا الأقوياء في هذه الصناعة فلا يحتاجون إلى ممارسة هذه الآلات بل يكتفون بالفكر والفهم والإرادة ويتصرّفون بالاعتبار بحسب قوى تصوّرهم ويمتلكون العواطف والمقاصد بكلّ سهولة. واختم صلاتك العقليّة بهذه الأجزاء الآتي ذكرها.

الجزء الخامس: [الشكر]

أُشكر الله عند انتهائك من الصلاة لأنّه منحك بنعمته العواطف الصالحة والمقاصد الحميدة التي اعتبرتها في موضوع تأمُّلك. وأنواع هذا الشكر ثلاثة كما قال مار توما اللاهوتيّ[١٩]. الأوّل: الشكر باللسان أي قل: «أشكرك يا إلهي إلى الأبد وأكلّف جميع محبّيك ليشكروك معي وأكلّف جميع الخلائق الناطقة وغير الناطقة على هذا الشكر. وهذا أيضًا ليس هو كفوءًا لك، يا يسوع حبيبي بل أطلب إليك أن تحبّ أنت ذاتك وتمدحها وتعظّمها معي لإحسانك عليّ». الثاني: الشكر بالقلب وهو معرفة الجميل، أي قل ليسوع: «الآن عرفت إحسانك إذ نبّهتني على ما كان ضروريًّا لي في هذه العواطف والمقاصد مع أنّني كنت أهلًا للانتقام.

---

(١٩) هو توما الأكويني (١٢٢٥ – ١٢٧٤م). برع في اللاهوت والمحاججة. له الخلاصة اللاهوتيّة. بخصوص موقف توما في صلاة الشكر، راجع مقالة «Action de grâces» في *Dictionnaire de Spiritualité*.

فأنا أسجد أمامك ولست أهلًا لأن أرفع نظري إليك». فاحنُ رأسك وقبِّل الأرض أمام يسوع. الثالث مقابلة الجميع، أي قل: «أنا مدين لك يا ربّ وأنّني ملتزم بخدمتك ومحبّتك حياتي كلّها فاعطني نعمةً في هذه العواطف لأنّها بغير ثباتك غير ثابتة، كما قلت: «بغيري لا يمكنكم أن تعملوا شيئًا». أنت هو كرمة الحقّ، ثبّتني فيك لآتي بأثمار كثيرة[٢٠].

**الجزء السادس: [الطلبة][٢١]**

أطلب من الآب السماويّ لأن يعطيك أنعام ابنه الوحيد وفضائله، وأن يبارك عواطفك ومقاصدك لكي يتمّمها واطلب من أجل الكنيسة المقدّسة الرومانيّة ومن أجل رأسها الحبر الرومانيّ مع جميع رؤساء الكهنة المحقّين والكهنة والرهبان الكاثوليكيّين ومن أجل إخوتك ومحبّيك والذين طلبوا منك الصلاة عنهم، ومن أجل المؤمنين كافّة أحياء وأموات ومن أجل الخطأة ليتوبوا والمرضى ليشفوا والمتضايقين ليصبروا وينجوا ومن أجل الكفّار والهراطقة والمعاندين ليرتدّوا إلى الإيمان المستقيم. واطلب هذا جميعه باستحقاق آلام يسوع المسيح وبشفاعة مريم والدة الإله وجميع القدّيسين. وإن طلبت شيئًا من الضروريّات الجسدانيّة فاطلب فيه مشيئة الله ومطابقةً. ثمّ اختم صلاتك بتلاوة أبانا والسلام واتّخذ لك من تأمّلك بعض معاني روحيّة لتردّدها بفكرك نهارك كلّه ويجوز لك أن تستعمل أفعال الشكر والتقدمة والطلبة فيما بين الاعتبارات. لكن يلزمك تكريرها أيضًا في ختام صلاتك هنا. هذا ما تيسّر لنا جمعه وتأليفه من كتب كنيسة الله. فاذكرني يا أيّها المتأمّل في ختام تأمّلاتك ليرحمني الله.

---

(٢٠) راجع يوحنّا ١٥، ٤.

(٢١) سقط الجزء السادس، وهو التقدمة، من النصّ المخطوط وحلّ مكانه الجزء السابع، الطلبة.